# العرب والعربية

## ( مقاربة لغوية ـ اجتماعية )

**زياد عزالدين العوف***

الملخص

يمثل هذا البحث محاولة منهجية مؤسسة لتلمس ملامح العلاقة القائمة بين العرب والعربية في مراحل مفصلية من تاريخهم ، وذلك بغية الوقوف على واقع هذه العلاقة ، ومن ثم آفاقها المستقبلية الممكنة .

وللوصول إلى هذه الغاية ؛ اعتمد البحث المناهج والأدوات البحثية التي تتوفر عليها (العلوم اللسانية ) الحديثة ؛ فضلاً عن بعض العلوم الإنسانية الأخرى وبخاصة ، ( علم الاجتماع اللغوي ) و ( علم اللغة الاثنولوجي ) و ( علم اللغة الأنثروبولوجي ) .

أما عن النقاط التي تصدى البحث لمعالجتها ، فقد كانت على النحو التالي :

- العلاقة بين اللغة والمجتمع
- العرب والعربية قبل الإسلام
- العرب والعربية بعد الإسلام
- العرب والعربية واقع وآفاق

هذا وقد خلص البحث إلى التأكيد على المضمون الحضاري للعربية ، مشدداً على ضرورة الانطلاق من مبدأ التلازم السببي بين النهضة اللغوية بخاصة والنهضة الحضارية بعامة .

*قسم اللغة العربية،كلية الآداب،جامعة سبها

يتناول هذا البحث طبيعة العلاقة القائمة بين العرب والعربية في مراحل تاريخية محددة في ضوء العلاقة بين كل من اللغة والمجتمع ، كما يبرزها البحث العلمي ، سعيًا وراء تحديد كنه هذه العلاقة ، وتوصيف عناصرها ، وبيان آليات تفاعلها . وذلك بغية استشراف آفاق لغوية ــ اجتماعية جديدة . وفي سبيل ذلك فإننا سنحاول معالجة النقاط التالية :

* العلاقة بين اللغة والمجتمع .
* العرب والعربية بعد الإسلام.
* العرب والعربية قبل الإسلام .
* العرب والعربية : واقع وآفاق .

**العلاقة بين اللغة والمجتمع .**

على الرغم من أن العلاقة بين اللغة والمجتمع تكاد ترقى إلى مصاف البدهيات فإنَّ تناول المهتمين والباحثين لهذه العلاقة يختلف اختلافا بيِّنا. وقد نشأ ذلك عن المنهج المعتمد والغاية المتوخاة في كل تناول .

مع ذلك ، يمكن الانطلاق من تعريف مبدئي عام متفق عليه ، يرى في اللغة (ظاهرة اجتماعية ) بكل ما يترتب على ذلك من اتصال وتفاعل بين العناصر اللغوية والاجتماعية على تنوعها وتشعبها . هذا يعني – بطبيعة الحال – عدم التعرض للأبعاد أو المظاهر الأخرى للغة ، سواء أكانت صوتية أم رمزية أم تركيبية أم نفسية ، أم غير ذلك ؛ بهدف تحديد مجال البحث ومحاولة الإلمام بعناصره ذات الصلة .

يمكن القول ببساطة إن اللغة ظاهرة اجتماعية ؛ لأنَّها نشأت وعاشت ونمت وتطورت في إطار المجتمعات البشرية ، ويقيناً ما كان لها أن تكون إلا كذلك.

بالتأكيد ، لن نتورط في البحث في أصل اللغة الإنسانية ومنشئها ، إذ إن هذا المسلك سينأى بنا عن هدف البحث ، بل عن مجال البحث العلمي الرصين بعامة ، ويزج بنا في عوالم الفرضيات والنظريات الفلسفية المفتقرة إلى الأدلة والبراهين . إلا أن هذا الاحتراز المنهجي لن يمنعنا – مع ذلك – من تلمس البعد الجمعي أو الاجتماعي في اللغة ؛ كما ورد في استعراض القران الكريم لواقعة خلق ( آدم ) –أبي البشر –

وتزويده بالأسماء –أي باللغة بوصفها ( آلة ) اجتماعية لابد منها لتحقيق التواصل في إطار المجتمع البشري المقدر .

يقول القران الكريم –كتاب العربية الخالد –في ذلك :

*" وعلَّم آدم الأسماءَ كلَّها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " .* (1)

نودع هذه الإشارة اللغوية القرآنية الدالة في الذاكرة لنعود مجددا إلى البحث في مدى التباين القائم بين الباحثين حول طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع ، فنجد أن السبب الرئيس في ذلك إنما يرجع إلى اختلاف الرؤية أو المنظور المعتمد لدى هؤلاء و أولئك . إن استعراضاً سريعاً لمجالات البحث العلمي ذات الصلة يظهر ذلك ، فلدينا : ( علم الاجتماع اللغوي ) و ( علم اللغة الاجتماعي ) و( وعلم اللغة الاثنولوجي ) و (علم اللغة الأنثروبولوجي ) و ( علم الانثروبولوجيا اللغوي )*،وكل هذه العلوم –كما يتضح من أسمائها تتعامل– بشكل أو بآخر –مع العلاقة القائمة بين المجتمع –أو أي من مكوناته –وبين اللغة .

إن المتأمل في طبيعة الدراسات والبحوث المستندة إلى المجالات العلمية السَّابقة لابد وأن يلحظ –أولا –أن الرؤية الغالبة عليها تتجلى في النظر إلى كل من اللغة والمجتمع بوصفهما ماهيتين منفصلتين ، مما يدفع إلى دراسة إحداهما من خلال الأخرى ، بحيث تمثل الأولى –أياً كانت –سبباً، والأخرى نتيجة أو أثراً. أما الملاحظة الثانية التي يجب إثباتها هنا ؛ فهي أن الهدف المعلن لمعظم هذه البحوث –إن لم يكن كلها –إنما هو المجتمع أو مكوناته في حين تكتفي اللغة بدور الوسيط المساعد على إجراء البحث ، نظرا إلى طواعية التعامل مع عناصرها .

---

* *هذه العلوم هي علم الترتيب :*

*( Sociologie du langage ) ( Sociolinguistique ) ( Anthropologie linguistique) (Ethno- linguistique) (Linguistique anthropologique)*

وطبقا للمنظور الأكثر تقليدية للاتجاه المذكور ؛ فان المجتمع هو الذي يحدد طبيعة اللغة . إن دراسة الظاهر اللغوية في هذا الإطار تسمح بتعيين المكونات الاجتماعية أو ( الثقافية ) التي أنتجتها .

غير أن هذا المنظور في تناول العلاقة بين اللغة والمجتمع ما كان له أن يستمر إلى ما لانهاية ؛ فقد ظهرت بوادر ومؤشرات التبدل الأولى مع ظهور أعمال اللغوي الألماني ( همبولت *Humboldt* ) في القرن التاسع عشر ، فوفقاً لهذه الأعمال لم يعد ينظر إلى اللغة بوصفها تمثل انعكاسا للبنى الاجتماعية والثقافية والنفسية للمجتمع ، بل أضحت – في ضوء هذا المنظور الجديد –سبباً لها . ليس هذا فحسب ، بل ان اللغة لم تعد تستخدم لتحديد حقيقة موجودة مسبقاً ؛ إنما غدت هي ذاتها من ينظم العالم المحيط بنا [2].

بيد أنَّ هذه الرؤية الجديدة –على أهميتها –تشكو من ضعف نظري واضح ، ذلك أنَّها ترتكز إلى موقف فلسفي مبدئي ، يحتاج إلى برهان تطبيقي . وقد حدث ذلك بالفعل ؛ إذ ما لبثت هذه الرؤية الفلسفية أن وجدت منعكساتها التطبيقية والتجريبية في الدراسات والبحوث التي ظهرت في القرن العشرين على يد مجموعة اللغويين الألمان التي تلمذت على ( همبولت ) .

لقد استنتج هؤلاء أن اللغة على صلة وثيقة بنظرتنا إلى العالم ، فنشأ عن ذلك إنَّ دراستنا للغة ما ستتيح لنا الوقوف على عقلية الأمة التي تتحدث بها . الجدير بالذكر أنَّ هذه الدراسات قد استندت فيما ذهبت إليه من تحليل إلى ما يعرف بـــ ( الحقول الدلالية )[3] ويشير مفهوم (الحقل الدلالي ) إلى ذلك التصنيف الذي تعتمده كل لغة لدى وضع مجموعاتها الدلالية المختلفة (الألوان ،الحيوان ، النبات ، المقاييس ، القيم،... ) وكذلك إلى طبيعة العلاقات القائمة ، أو المفترضة في إطار هذه الحقول بين الدوال والمدلولات ( الألفاظ والمعاني ) وبين اللغة والعالم الخارجي [4] .

في إطار الرؤية ذاتها ، وبالتوازي مع مجهودات اللغويين الألمان السابقة، أكد العالمان الأمريكيان ( سابير ، و وورف *sapir- whorf* ) في النصف الأول من القرن العشرين

. إن كل لغة أو مجموعة من اللغات ترتبط بشكل وثيق بتصور أو تمثل معين للعالم ، بحيث لا يمكن فهم هذا التصور خارج إطار اللغة المعينة . لقد درس الألسني الأمريكي (وورف *whorf* ) بصورة خاصة بعض المفاهيم المرتبطة بالزمان والمكان ، فلاحظ أن التعبير عنها في عدد من اللهجات الأمريكية الأصلية يختلف تماماً عن نظيره في اللغات الهندوأوربية [5]. هذه المساهمات ، وغيرها كثيرة من قبل اللغويين ؛ وضعت اللسانيات الحديثة في موضع العلم الرائد القادر على تزويد بقية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالمفاهيم والمصطلحات و ألاطرالإجرائية والمنهجية الضرورية لاستخدامها في تلك العلوم . ولعل في أعمال عالم الانثروبولوجيا الشهير ( ليفي ستراوس *L evi - strauss* ) مايؤكد ذلك . لقد بنى مؤسس الأنثروبولوجيا البنيوية أعماله معتمداً أسس اللسانيات البنيوية ، وبخاصة منهج علم وظائف الأصوات (*phonologie*) يقول :

" لا يمكن لعلم وظائف الأصوات إلا أن يلعب – إزاء العلوم الاجتماعية الدور المجدد ذاته الذي لعبته الفيزياء النووية – مثلاً – بالنسبة لمجمل العلوم الدقيقة "[6] حيث طبق منهج علم ( وظائف الأصوات ) على دراساته لأنظمة القرابة فيما يعرف بالمجتمعات البدائية ؛ منطلقاً من اعتبار الوحدات الصوتية الصغرى ( *Phonemes* ) مناظرة لمفردات القرابة من حيث وظيفتها الدلالية .

وثمة منظور آخر لرؤية طبيعة العلاقة القائمة بين كل من اللغة والمجتمع، يرى في اللغة واقعة اجتماعية أو نمطاً سلوكياً . ويقتضي ذلك تعليق التقابل بين الطرفين أو الماهيتين – اللغة والمجتمع –وذلك بتكوين موضوع لغوي جديد ، يؤطره ( علم اللغة الانثروبولوجي ). لقد وضع رائد الألسنة الحديثة (دوسوسير *De saussure* ) وتابعه في ذلك اللغويان الفرنسيان ( ماييه *Meillet* ) و ( فندريس *vandryas* ) نظرية متكاملة تقوم على تأصيل مفهوم اللغة في إطار نظرية عامة للوقائع الاجتماعية . فطبقاً لـ (سوسير ) تمثل اللغة منظومة من العلامات ذات التأثير المتبادل ضمن نظام أشمل من العلامات الاجتماعية التي يحتضنها المجتمع . مع ملاحظة أنَّ (سوسير ) يركز اهتمامه

بالدرجة الأولى على الناحية الوظيفية للغة ، باعتبارها وسيلة للتواصل الاجتماعي . (7)

هذا ، بينما يمكن اعتبار عالم الاثنولوجيا الإنجليزي ( ما لينوفسكي *Malinowski* ) رائداً للاتجاه السلوكي ، إذ إنه أول من صاغ فرضية علمية ترى في اللغة صيغة من صيغ الفعل السلوكي . وقد تبنى الألسني الإنجليزي ( فيرث *Firth* ) وتلاميذه من بعده هذه الرؤية ، بحيث أضفوا على كل ( ملفوظ)* بعداً سلوكياً . (8)

وقد استمر تطور هذا المنظور اللغوي إلى أن صاغ الفيلسوف الإنجليزي (أوستن Austin ) مفهوم ( قوة الخطاب )** انطلاقاً من سعيه نحو وصف الاستخدامات المختلفة للغة (9) .

هذا ، وتمثل ( التداولية *pragmatique* ) –وهي من أحدث العلوم اللغوية –تتويجاً لهذا الاتجاه وذلك من خلال عنايتها بالبحث في العلاقات القائمة بين العلامات اللغوية ومتداوليها ( المتخاطبين )؛ عبر تحليلها لعمليات الكلام، ووصفها لوظائف الأقوال اللغوية وخصائصها لدى التواصل اللغوي .

نخلص من ذلك إلى أن علوم اللغة ، ومعها العلوم المساعدة التي أشرنا إليها ، قد وصلت إلى نتيجة واضحة في تصور طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع مفادها أن اللغة تمثل أهم مظاهر السلوك الاجتماعي ، وأوضح سمات الانتماء الاجتماعي للفرد (11).

**العرب والعربية قبل الإسلام**

يقصد بالعربية هنا اللغة الفصحى التي لا نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والإبداع الأدبي ، وهي إحدى اللغات السامية التي يعود أقدم ما وصلنا منها إلى حوالي ألفي عام . غير أن اعتماد المنهج المقارن في دراسة اللغات السامية قد مكن العلماء والباحثين من الوقوف على ظواهر لغوية عربية تسبق الشعر الجاهلي بأكثر من ألفي عام (12).

---

** الملفوظ (Enonce) بالقياس إلى الجملة ، هو وحدة لغوية نصية ، بينما يدل مفهوم (الجملة) على وحدة نحوية مجردة .*

*** قوة الخطاب – Forceillocutoire – وقد تطور ذلك فيما بعد إلى ما يعرف بنظرية ( أفعال الكلام Actes de paroles ) في إطار التداولية .*

ويرى الدكتور ( عمر فرّوخ ) أن اللغة العربية أقدم اللغات السامية التي ما زالت تتمتع بخصائصها من ألفاظ وتراكيب وصرف ونحو وأدب وخيال مع الاستطاعة في التعبير عن مدارك العلم المختلفة [13] .غير أنه يقترح اسم ( لغات أعرابية ) بدلا من ( لغات سامية ) لأن هذه اللغات قد نشأت في شبه جزيرة العرب . ويضيف ( فرّوخ ) : " وإذا نحن نظرنا إلى تمام القاموس العربي ، وفي كمال الصرف والنَّحو ، وجب أن نعد اللغة العربية أمّاً للغات الأعرابية جمعاء ، إلا أن يرى أهل الاختصاص في هذا الميدان رأيًا آخر " [14] .

ولسنا هنا بصدد تأصيل العربية وبيان عائلتها اللغوية ، وبعدها الزماني والمكاني ، فلذلك مظانة لدى المختصين من علماء اللغة والمؤرخين . غير أنه بدا لنا مناسبًا في هذا السياق التمهيد بهذه اللمحة التاريخية الموجزة عن العربية الفصحى ؛ مدار بحثنا هذا .

بالعودة إلى تناول العلاقة بين العربية والعرب قبل الإسلام فإننا نرى أنَّه ليس من المبالغة في شئ القول بأن عرب الجاهلية قد كانوا أكثر الأقوام تعلقًا بلغتهم ، وافتتانًا بها ، في مناحي القول وضروب التعبير بها . ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن تعبير (الجاهلية ) الذي أطلقه القرآن الكريم على العصر الذي سبق الإسلام ، إنما يدل على الجهل بما هو نقيض الحلم وليس على الجهل الذي هو نقيض العلم والمعرفة .[15] ويرجع ذلك إلى الوثنية وإلى ما كان يسود حياة العرب قبل الإسلام من مظالم ورذائل وتعديات .

لقد بات معروفًا لدى الباحثين أن ثقافة العرب ، بل وجماع حضارتهم قبل الإسلام تتجلى بأوضح صورها في نشاطهم اللغوي الأدبي المتمثل أساسًا فيما خلفوه من شعر وخطب وحكم وأمثال فكان هذا النتاج الأدبي ، وبخاصة الشعري منه مجلى حياتهم الاجتماعية والعقلية والشعرية . نقف فيه على تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وما يتحلون به من قيم وفضائل ، فضلا عما يعتور حياتهم من مظالم وخرافات ورذائل طبعت سلوكهم الفردي والجماعي على السواء . فكان الشعر الجاهلي – كما ذكر الأقدمون – بحق ( ديوان العرب ) ، أي سجل حياتهم .

كان للغة إذًا حضور طاغ في حياة عرب الجاهلية ، ليس بوصفها وسيلة تعبير وتواصل اجتماعي فحسب ؛ إذ إن هذا شأن جميع الأمم والشعوب مع لغاتها . لكنه هذا الحضور الذي يوشك أن يهيمن على جماع حياتهم الحسية والشعورية ، والمادية والمعنوية ، العقلية والعاطفية، الدينية والدنيوية ، الفردية والجماعية على حد سواء . نلمس ذلك في طقوس الفرح التي تواكب نبوغ الشاعر في القبيلة ، ذلك أنه لسانها المعبر عن مآثرها ومفاخرها ، المدافع عن حرماتها والمتصدي لخصومها .

يقول ( ابن رشيق القيرواني ) في كتابه ( العمدة ) مبينًا ذلك :

" كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه ( أي الشاعر ) حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنؤون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج " .[16] .

فكأن نبوغ الشاعر في القبيلة – والحال كذلك – حدث وجودي ، كما هو الشأن مع ولادة الغلام ونتاج الخيل ، إذ هما رمز للبقاء والقوة . لقد طبع الفخر والمديح والهجاء قسمًا كبيرًا من شعر الشاعر الجاهلي ، أي من نشاطه اللغوي الاجتماعي ؛ حيث كانت القبيلة – أي المجتمع – دائمة الحضور في فنون القول ، إذ إن ذلك منها وإليها . لا نستثني من ذلك حتى الشعراء الصعاليك الذين خرجوا على القبيلة وتمردوا على أعرافها وعاداتها وتقاليدها ؛ بحثًا – كما يرون – عن العدالة والمساواة . فهذا الشاعر الفارس ( عروة بن الورد ) الملقب بعروة الصعاليك ، لقيامه بأمرهم ، يرد على أحد سادات قومه الذي عيره بالشحوب والهزال، فيعلل ذلك بقيامه بشأن الفقراء والمعوزين من أمثاله . يقول في ذلك :

وإني امرؤ عَافِي إنائي شِركَة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهدُ

أقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قراحَ الماءِ ، والماءُ باردُ

فإن ما مسه من نصب وشحوب وهزال مرده إلى اقتسام طعامه مع الآخرين فكأنه يقطع لهم من جسمه وذلك على النقيض من ذلك ( السيد ) الذي سمن من كثرة ما يأكل مغفلاً في الآن ذاته حقوق بني قومه .

وهكذا ، كان شعر الصعاليك ظاهرة لغوية اجتماعية في آن واحد . ويقابل الابتهاج بظهور الشاعر الخوف مما قد تتعرض له القبيلة أو الأفراد من شعراء القبائل الأخرى المناوئين . إنَّه الخوف مما قد يجلبه الهجاء – أي اللغة – من شؤم وشر . وهنا نلامس الربط القائم في شعور، أو لا شعور عرب الجاهلية بين فن القول وفن السحر ، فكلاهما – في ظنهم – ذو تأثير مخيف حري بهم أن يتجنبوه . فما يتمتم به الساحر ، أو يتلفظ به الشاعر يتفقان أثرًا وإن اختلفا مظهرًا . يقول (الجاحظ ) في ذلك : " وقالوا في التحذير من ميسم الشعر ومن شدة وقع اللسان ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجو . قال ( امرؤ القيس ) :

ولو عن نثا غيره جاءني  وجرح اللسان كجرح اليد

وقال ( طرفة بن العبد ) :

رأيت القوافي يتلجن موالجًا  تضايق عنها أن تولجها الإبر[17]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد كان مألوفًا أن ينظر إلى الإبداع الشعري بوصفه ظاهرة خارقة يقوم الجن والشياطين فيها بإلهام الشاعر فنون القريض . يقول الشاعر المخضرم ( الحصين بن الحمام المري ) مفتخرًا بمقدرته الشعرية التي أتاحت له الانتشار في الآفاق مثيرة التساؤلات عن شخص قائلها :

وقافية غير إنسية  قرضت من الشعر أمثالها
شرود تلمع في الخافقين  إذا أنشدت قيل : من قالها؟[18]

ويقول راجز هم مفاخرًا سائر الشعراء :

إني وكل شاعر من البشر  شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

هذا ، ولا يقتصر الأمر على الشعر وحده . إن احتفاء عرب الجاهلية بفنون القول قد امتد ليطال النثر من خطب وحكم وأمثال. لقد كان الشاعر والخطيب فرسي رهان يتبادلان مواقع الحظوة والشرف لدى القبيلة ؛ إذ كانت بحاجة إليهما كليهما ؛ إلا أن كثرة عدد الشعراء وانغماس الكثير منهم في التكسب والارتزاق، وإسراعهم إلى أعراض الناس أعلى من مكانة الخطيب لدى القبائل . يقول الجاحظ : ( وكان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم ، وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر)[19]

جملة القول في ذلك إن حضور العربية في مجتمع عرب الجاهلية حضور كلي ، يبدأ من تفاصيل حياتهم اليومية الصغرى ، ثم لا يني يمتد ليطال جوهر حياتهم ذاتها في بعدها الوجودي ذاته .

**العرب والعربية بعد الإسلام .**

جاء الإسلام والعربية القرشية الفصحى لغة القوم الأدبية والرسمية يعتمدونها في نتاجهم الأدبي والشعري أوله، وفي علاقات القبائل فيما بينها. ومما لا ريب فيه أن هذه العربية الفصحى كانت قد قطعت مسيرة طويلة من التهذيب والتشذيب والاصطفاء اللغوي ، فاستوت بذلك على عودها لغة راقية مكتملة العدة والعتاد : أصواتاً وتراكيب ودلالات وطرق تعبير .

يقول الدكتور / صبحي الصالح / في ذلك :

( اصطنع العرب لغة قريش للتفنن في القول ، والإبانة في التعبير ؛ فدل استصفاؤهم إياها على أنها اختارت من كلام العربي أبينه ، وراعت أرشقه ، واعتمدت أصفاه ؛ فكان حقًا ما ذهب إليه الباحثون من المستشرقين وغيرهم من أن أهم مزية للعربية حفظت لها شخصيتها بين أخواتها الساميات إنما هي عزلتها عن الشعوب الأعجمية ، واكتفاؤها

بمقدرتها الذاتية على التعبير ، وعلى التمثل والتولد وعلى التخير والانتقاء ، في موطنهـا عينه ، وبيئتها نفسها ) [20] .

ثم كان نزول القرآن الكريم بلسانها على قلب النبي الأمي محمد – صلى الله عليه وسلم – بوصفه معجزته الكبرى ، تكريسًا وتكريمًا لهذه اللغة من جانـب ، وتحـديًا لأصـحابها الناطقين بأصواتها ، والمدلين ببيانها ، من جانب آخر . فكان هذا الكتاب السماوي أقـدم وأهم وثيقة مكتوبة وصلت إلينا من هذه اللغة .

إن استشعار العرب لشخصيتهم وكيانهم ظل ناقصًا وقلقًا لا يجد معادله اللغوي ، حتى جاء القرآن الكريم فأكمل النقص ، وبدد القلق في معرض دحضه لتخرصـات المشـركين ، فوصف النبي ( بالعربي ) وصفًا يدل على الانتماء ويحدده . يقول في ذلك :

*" ولو جعلناه قرآنـــــــــــــــــــــــا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي "* [21]

.

أي : أكتاب أعجمي ، ونبي عربي ؟

إننا لن ندرك قيمة هذه الدلالة القرآنية في تحديد الشخصية العربية إلا إذا عرفنا أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا قد خلا من لفظي (عربي وعربية ) ، دلالة على العـرق في الأول ، وعلى اللغة في اللفظ الثاني . ويعلل الدكتور ( عمر فروخ ) ذلك بقوله :

( لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبلية فلم يكن لديهم ، فيما لدينا من التـراث اللغوي ، ما يدل على المدرك القومي الجامع )[22] .

وعندما استشعر شاعرهم ( عنترة ) انتماءه القومي في مواجهة الفرس لم يجـد – كمـا يلاحظ ( فروخ ) الكلمة التي تعبر عنه ، فاضطر إلى أن يدور حول المعني ببيت كامـل من الشعر ، هو قوله :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

لقد أسقط ( عنترة ) شعوره بالانتماء لقومه من العرب ، وكراهيته للفرس ( الديلم ) على ناقته ) ، فجعلها تزورّ عن مياههم .

أجل لقد حدد القرآن الكريم بلفظ ( عربي ) المعادل اللغوي لانتماء النبي الكـــريم لقومه من قريش ، ولكنه تحديد وصف ، لا تحديد قيمة . فالمعيـــار الإســـلامي الوحيـــد للتفاضل بين الناس – كما هو معلوم – إنما هو التقوى ، وليس الانتماء لهذا العرق أو ذاك .

" *إن أكرمكم عند الله أتقاكم* " [24] .

والمشروع الإسلامي – كما جاء به القرآن الكريم – يسعى إلى بناء أمة موحدة الجـــامع بين أفرادها هو الإيمان ، وليس الانتماء لهذه القبيلة – أو تلك ، أو لهذا العرق أو ذاك : " إنما المؤمنون إخوة "[25] .

بل ربما لا نغالي في شئ عندما نقول إن الإسلام قد ذهب أبعد وأعمق مـــن ذلـــك بكثير عندما أعاد تحديد مفهوم العربي والعروبة بتقويضه للفهم العرقي ، وبتأسيسه للفهم العقدي لهما ، متوسلاً إلى ذلك بالبعد اللغوي ، فأخذت العربية وفق هذا المنظور أبعـــادًا إنسانية جديدة في إطار المجتمع الإسلامي الجديد . نشير في هذا السياق إلـــى مـــا رواه الرواة من غضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عندما تناهي إلى سمعه أن أحدهم قد نال من عروبة ( سلمان الفارسي ) . فدخل المسجد ، وقال:

( أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، وليس العربية بأحدكم من أب ولا أم ، إنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي )[26] .

نحن إذًا ، أما تبدل جوهري لمفهوم الأمة واللغة ، لمدلول العرب والعربيـــة فـــي إطار المجتمع الإسلامي الجديد . إنه التبدل الذي تمليه طبيعة العلاقة بين اللغة والمجتمع ، التي سبق أن تناولناها في مكانها من بحثنا هذا .

فكأن القرآن الكريم قد نزل بالعربية لإثباتها ولتجاوزها في الآن ذاتـــه ؛ لتكـــريم العرب ولتحديهم في الوقت نفسه . ومن هنا نشأت ظاهرة الإعجاز القرآني.

فلقد رأى عرب الجاهلية في آياته مثالاً فذًا للسمو اللغوي ، فعرفوه وأنكروه في آن : لقد عرفوا فيه عربيتهم التي يحسنون ، ولكنهم أنكروا فيه كماله الذي لا يســـتطيعون ؛

فوقفوا إزاءه عاجزين . بل لقد بلغ الأمر بالمعاندين والمستكبرين منهم أن قرونه بالشـــعر والسحر ، أما النبي الموحى إليه بهذا القرآن المعجز فهو لا يعدو أن يكـــون شـــاعرًا أو ساحرًا فيما يزعمون . فتحداهم القرآن في غير ما موضع بأن يأتوا بمثله أن ببعضه تبكيتًا لهم وتأكيدًا لعجزهم :

*" وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين "* [27] *ثم إنه حكم عليهم بالعجز التام الدائم عن ذلك حين قال :*

*" قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولـــو كـــان بعضهم لبعض ظهيرا "* [28] .

أما المعاندة والاستكبار فقد ذهب بهما خضوع العرب وإيمانهم ، وأما إعجاز القرآن فهـــو باق ما بقي هذا الكتاب : *" إنَا نحن نزلنا الذكر وإنَا له لحافظون "* [29] .

وبفضل هذا القرآن تحولت العربية من لغة مجتمع قبلي محدود ومخصـــوص إلـــى لغـــة حضارة إنسانية تتسع للتعبير من خلال أصواتها ومفاهيمها ووسائلها التعبيرية عن جميع الشعوب والأقوام التي انضوت تحت لواء الإسلام ، متخذة من كتابه العربي دستورًا لها .

إن اللغة – طبقًا للفهم الذي خَلصنَا إليه لدى تناولنا لعلاقتها بالمجتمع – تحـــدد وتصـــوغ فهمنا وتصورنا للعالم المحيط بنا بكل أبعاده الفكرية والاجتماعية والنفسية . تأسيسًا علـــى ذلك ، يمكن القول ، إذاً : إن القرآن الكريم بصياغته الجديدة لمدلولي العرب والعربيـــة ، قد أعاد تشكيل وصياغة وعي العرب بالعالم والكون من حولهم .

وكما يلاحظ الدكتور / محمود حجازي / فإن انتشار العربية مع الفتوح الإسلامية قد أدى إلى تغير الحدود الجغرافية للمنطقة اللغوية العربية تغيرًا حاسمًا . حيث امتدت هذه الحدود لتشمل بلاد الشام والعراق وقسمًا من بلاد فارس في المشرق الآسيوي ؛ فضلا عن بـــلاد مصر والنوبة والسودان ودول شمال أفريقيا ؛ التي باتت تعرف بدول المغرب العربـــي ،

إضافة إلى المؤثرات العربية الواضحة في الدول الأفريقية الواقعة جنوب دول المغـــرب .[30]

وهكذا غدت العربية اللسان المعبر عن الحضارة الإسلامية الناشئة بكـــل أبعادهـــا الدينية والدنيوية . وكان على اللغة العربية ، والحال كذلك ؛ أن تستنفر جميـــع طاقاتهـــا الظاهرة والكامنة للوفاء بحقوق هذه المسؤولية الضخمة التي ألقاها الإسلام على عاتقها ؛ فكان القرآن الكريم هو البؤرة اللغوية المعرفية التي انبثقت عنها جميع الجهـــود العلميـــة والثقافية التي تضافرت على بذلها جميع الشعوب الإسلامية التي انصـــهرت فـــي بوقتـــه الإسلام .

وفي مجالنا اللغوي هذا حسبنا أن نشير إلى البحوث العلمية الجادة التي قام عليها ، بدءًا من القرن الهجري الأول ، مجموعة من العلماء المسلمين الأفـــذاذ علـــى اخـــتلاف أصولهم ، ففي مجال النحو واللغة تتضافر جهود العلماء العرب من أمثال ( الخليـــل بـــن أحمد ) و ( أبي عمر بن العلاء ) و ( المبرَد ) مع نظرائهم من غيـــر العـــرب أمثـــال ( سيبويه ) و (السيرافي) و ( الكسائي ) من ذوي الأصول الفارسية و ( ابن جني ) الرومي الأصل ، وغيرهم كثير في تاريخ الحضارة الإسلامية [31] . تتضافر هذه الجهود للتعمق في دراسة الظاهرة اللغوية العربية على ضوء الظاهرة القرآنية .

نخلص من ذلك إلى أن العربية قد اكتسبت بفضل الإسلام وكتابه الخالد القرآن ؛ ماهيـــة حضارية جديدة أهَّلتها للتعبير العميق والشامل عن حياة هذا المجتمع الجديد بكل عناصره ومكوناته العرقية والمعرفية والثقافية .

**العرب والعربية : واقع وآفاق .**

يمكننا الآن ، بعد أن وقفنا على طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع، وبعد أن تلمسنا أثر هذه العلاقة في صلة العربية بمحيطها البشري والاجتماعي قبل الإسلام وبعده ، أن نتبين بجلاء مظاهر الدور الفاعل والخلاق الذي تقوم به اللغة فـــي تشـــكيل وعـــي الأفراد والجماعات وفي تحديد أنماط سلوكها وانتماءاتها المختلفة . لقد تمثل لنا ذلك فـــي

تلك النقلة النوعية التي أحدثتها العربية القرآنية مع ظهور الإسلام ، من خلال إعادة صياغة ملامح الشخصية العربية ( من هو العربي ؟ ) ، بغية تأهيلها للقيام بالدور الرسالي المنوط بها ، في إطار المفهوم الحضاري العالمي للإسلام كما تعبر عنه الرموز اللغوية العربية بعد اكتسابها لشحنات دلالية جديدة تحل الإسلام، محل الجاهلية والمجتمع محل الفرد ، والأمة محل القبيلة ، والعلم محل الخرافة . في إطار حركية لغوية فكرية حضارية يلتحم فيها ( الدال بالمدلول ) ضمن فعل لغوي حضاري متكامل.

في ظل هذا الفهم الصحيح والعميق للغة وللفعل اللغوي في الإسلام نستطيع أن نتفهم هذا التأكيد الإلهي على عربية القرآن الكريم وبيانه الناصع في آيات كثيرة ، منها :

" إنا أنزلناه قرآنا عربيًا لعلكم تعقلون " [32]

" ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنـًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون "[33] .

" وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين "[34] .

يترتب على ذلك أن حركة المجتمع – وفقًا للمفهوم الذي بينَّاه – هي ، في أحد أبعادها ؛ حركة لغوية . فهناك والحال كذلك ، نوع من العلاقة التناظرية والطردية بين النهضة اللغوية بخاصة والنهضة الحضارية بعامة في كل أمة وحضارة . وهذا ما يظهر جليًا في حالة الحضارة الإسلامية برموزها العربية القرآنية .

ينشأ عن ذلك أن كل تراجع أو نكوص عن العربية ، بالمفهوم الذي آلت إليه بعد الإسلام ؛ يعني بالضرورة نكوصًا عن حسن استيعاب وتمثل الحضارة الإسلامية . وكما هو ملاحظ في حركة المجتمع العربي الراهن ، فإن سوء التمثل هذا يأخذ مسارين اثنين :

1- نكوص نحو المفهوم القومي الضيق ( عودة إلى الماضي الجاهلي )
2- ابتعاد ، جزئي أو كلي ، عن العربية ، وتهجين للشخصية اللغوية والحضارية للأمة عبر الذوبان التدريجي في لغة وحضارة الغرب.

إن مباشرة فعل حضاري متقدم يتطلب منَّا إذًا مباشرة فعل لغوي مناظر ؛ ينطلق من خصائص العربية المتمثلة في قدرتها وكفاءتها وآلياتها في التوليد والاشتقاق والتعريب ؛ التي كفلت لها في عصرها الذهبي الفاعلية والسيادة الحضارية . والعربية هي هي لم تتبدل بحفظ القرآن الكريم لها . يبقى أن الأمر مرهون بالفعل اللغوي للناطقين بها . وهم مسؤولون عن ذلك بنص الكتاب الكريم :

" وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون " [35] .

يقتضي الأمر إذًا :

* فهمًا دقيقًا سليمًا للمضمون الحضاري للغتنا العربية .

* العمل على الارتقاء بالعربية بما يحقق استخراج طاقاتها الكامنة القادرة على التعامل مع مستجدات العصر ، بالاستفادة من قدراتها وآلياتها الذاتية في التطور والتجدد .

* الانطلاق من مبدأ التلازم السببي بين النهضة اللغوية والنهضة الحضارية بوجه عام ، فالاهتمام بالعربية والعمل على تفعيل دورها في حياتنا ومجتمعاتنا، يعني بالضرورة المساهمة في النهضة العامة ، بل أكثر من ذلك وضع الأساس السليم والمتين لهذه النهضة .

**الهوامش**

1- سورة البقرة، الآيات 31-33.

**2-** انظر *ducrot/todorov,sociolinguistique,in Dictionnaire encyclopdique des sciences du langage , parise,seuil,1972,p.85*

3- المرجع السابق ،ص *85*.

4- انظر ،جون ليونز ،علم الدلالة ،ترجمة مجيد عبدالحليم الماشطة ،وأخرون ،جامعة البصرة ،*1980*، ص *49*.ا

5- انظر *Dicitionnaire.....p.85*

*6- J.Kristeva,Le langage cet inconnu,paris , 1965.*

*7-* انظر *F.Du saussure, Cours de linguistique generale paris,1922.*

8- انظر *Dictionnaire.....p.89,*

*9-* انظر *J.L. AUSTIN.quand dire, C'est faire,1970.*

10-د.زياد العوف ،الأثر الأيدولوجي في النص الروائي، دمشق ،مؤسسة النوري،*1993* ،ص*10*

11-د.محمود فهمي حجازي, علم اللغة العربية ،الكويت ،وكالة المطبوعـــات ،*1973* ،ص *51*.
12-المرجع السابق ،ص*193* .
13-د.عمر فروخ ,عبقرية اللغة العربية ،بيروت ،دار الكتاب العربي ،*1973* ,ص*51* .
14-المرجع السابق،ص*8* .
15-د.عمر فروخ ،تاريخ الادب العربي ،بيروت، دار العلم للملايين, *1984* ط*5*.
16-المرجع السابق ,*75-76* .
17-الجاحظ(عمرو بن بحر) , البيان والتبيين ، ج[1] ,بيروت,دار إحياء العلوم، *1993* ,ص*157-159* .
18-تاريخ الأدب العربي ,ص*267* .
19-البيان والتبيين ، ج[1] ,ص*1039* .
20-د.صبحي الصالح ,دراسات في فقه اللغة ،بيروت ،دار العلـــم للملايـــين ,*1983* .ط*10* ,ص*126* .
21-سورة فصلت، الآية *44* .
22-عبقرية اللغة العربية ، ص*126* .
23-المرجع نفسه ،ص*126* .
24-سورة الحجرات ،الآية *13* .
25-سورة الحجرات ,الآية *10* .
26-د.عبدالصبور شاهين ، دراسات لغوية ,بيروت ،مؤسســـة الرســـالة ,*1986* /ط*2* ،ص*76* .
27-سورة البقرة،الآيتان *23 – 24* .
28-سورة الإسراء ،الآية *88* .
29-سورة الحجر ،الآية *30* .
30-انظر د.حجازي ،ص ص *238 – 299* .
31-انظر د. شوقي ضيف ،المدارس النحوية ، القاهرة ،دار المعارف ,*1992* ,ط*7* .
32-سورة يوسف ,الأية *2*.
33-سورة الزمر , الآية *27* .

34-سورة الشعراء , الآيات *192 – 195* .
35-سورة الزخرف ,الأية *44* .